المولد النبوي ومظاهر العناية الإلهية ونوافذ البركات الربانية



الحمدُ للّه رب العالمين، والعاقبة للمُتقين، وأُصلِّي وأُسلِّم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ومولانا رسول اللّه وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

أ.د. نظير محمد عياد

فقد كان مولد النبي ﷺ محفوفًا بالبشارات مفعمًا بأنماط التكريم، ومظاهر التشريف، ومحاطًا بجوٍّ من الأحداث والملابسات، التي تقود من يتأمل أو يتوقف عندها نحو تغيير مرتقب، وكأن الحياة حينئذ كانت تتأهب جميعها بما فيها ومَنْ فيها لاستقبال أمر مهم وخَطب جلَل وحدث فريد وموكب عظيم، ألا وهو استقبال مولد خاتم الأنبياء والمرسلين - عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم-، وكأن الدنيا تستعد لاستقباله في فرح وسعادة، وتكريم وإشادة، ولِم لا؟ وها قد جاء أفضل من وطئ الأرض وأكرم من سكنها وأعظم من جابها في دعوته، وأطهر من امتطاها في رحلته الحياتية بلوغًا إلى دار الخلد حيث الرفيق الأعلى والحضرة الإلهية، إنه مولد أعظم مَنْ أنجبته الإنسانية، وأنبل مَنْ عرفته البشرية، كيف لا؟ وقد نظَّم حياة الإنسان أحسن تنظيم؛ بالعدل والعلم والحكمة والإحسان والإتقان، في زمان انتشرت فيه الجهالة، وخيَّمت عليه الضلالة، وتفشَّت فيه العادات الدنيئة والأعراف الجائرة والأحكام الظالمة، فكان مولده ﷺ مولد هدى ونور،

مولدًا يُعد مقام إعجاز، ومبعث تكريم، ومحل تشريف، وموضع تقدير، ومجال إجلال، ومناط إرهاص أنه ثمة تغيير سيعتري العالم، يأخذ به إلى بر الأمان، ويُخلصه من أدران الشرِّ وظلمة الكبر وأوهاق[1] الظلمة إلى سمو النور والإيمان، كما يخلصه من آثار العصبية البغيضة والأعراف والعادات الرذيلة إلى مجتمع المحبة، وبيئة الفضيلة.

وُلد ﷺ من أسرة زاكية المعدن نبيلة النسب معروفة القدر حسنة السمعة عظيمة الفضل، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل، واستحوذت على ما فيهم من خصائل، وترفعت عما فيه معرة أو قدح في سلوك، وهذا ما عبَّر عنه ﷺ بقوله: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[2].

ويحدثنا ابن إسحاق عن المولد الكريم؛ فيقول: «ولد النبي صلى الله -تعالى- عليه وآله وسلم عام الفيل؛ فدُفع إلى أمه، والتمس له الرضعاء، واسترضع له حليمة ابنة أبي ذؤيب»[3].

وذكر الإمام السهيلي أنه «وُلد رسول الله صلى الله -تعالى- عليه وآله وسلم يوم الاثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل»[4]. وتبعه ابن هشام[5].

ويقصُّ علينا الإمامُ السهيلي جانبًا من خبر مولده ﷺ، قائلًا: «إن آمنة ابنة وهب أم رسول الله صلى الله-تعالى-عليه وآله وسلم كانت تُحدِّث أنها أُتيتْ حين حملتْ برسول الله صلى الله -تعالى- عليه وآله وسلم، فقيل لها: إنك قد حملتِ بسيد هذه الأُمة، فإذا وقع إلى الأرض؛ فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سَمِّيه محمدًا» [6].

وقد تعددت البشارات والإرهاصات المصاحبة لمولده ﷺ وتنوَّعت، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على مظاهر العناية الإلهية ونوافذ المنح الربانية، ومن بين هذه البشارات ما جاء عن سيدنا حسان بن

(١) مفردها: وهَق، وهو القيد (المجلة).
(٢) صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ٤/ ١٧٨٢ رقم (٢٢٧٦).
(٣) سيرة ابن إسحاق، تحقيق: سهيل زكار، صـ ٤٨، دار الفكر- بيروت، ط: ١، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
(٤) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت: ٥٨١هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، ٢/ ٩٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، ١/ ١٤٦، شركة الطباعة الفنية المتحدة.
(٦) الروض الأنف، ٢ / ٩٢.

ثابت حيث يقول: والله إني لغلام يَفَعَةٌ، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أَطَمَةٍ بيثرب: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك ما لك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي وُلد به»(٧).

كما أن من بين هذه البشارات والإرهاصات المصاحبة لمولده ﷺ ما نزل بأبرهة وجيشه وحاق بهم، إنه حدث عظيم ومشهد غريب وأمْر جلل فريد، لا يمكن للعقل تصوره، مع أنه حقيقة ثابتة، وهو هلاك جيش أبرهة بحبات الحصى تنزل على الرءوس؛ فتجعلها كعصف مأكول، نعم، إنها حادثة فوق مستوى العقل، منها واقعة ثابتة فقد قال الله سبحانه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: ١-٥)(٨).

(٧) السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ١٤٧.
(٨) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد أحمد غلوش، صـ١٦٦، مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م بتصرف.

ولا يتوقف أمر هذه البشارات أو تلك الإرهاصات عند هذا الحد فقد روى البعضُ أن إرهاصات وقعت عند الميلاد ومنها: ارتجاس إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة منه، وخمود النيران التي يعبدها المجوس، وقد ذكر الإمام الطبري وغيره: «أنه لَمَّا كانت ليلة ولد فيها رسول الله صلى الله -تعالى- عليه وآله وسلم ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان(٩) إبلًا صعابًا، تقود خيلًا عرابًا، وقد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم، فلما أصبح كسرى أفزعه ما رأى، فصبر تشجعًا، ثم رأى ألا يكتم ذلك عن وزرائه ومرازبته؛ فلبس تاجه، وقعد على سريره، وجمعهم إليه، فلما اجتمعوا إليه؛ أخبرهم بالذي بعث إليهم فيه ودعاهم، فبينا هم كذلك، إذ ورد عليه كتاب بخمود النار؛ فازداد غمًّا إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى، وما هاله؛ فقال الموبذان: وأنا -أصلح الله الملك- قد رأيت في هذه الليلة، وقص عليه الرؤيا في الإبل، فقال: أي

(٩) الموبذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين، قال صاحب القاموس: الموبذان فقيه الفرس وحاكم المجوس، ١/ ٣٣٩.

شيء يكون هذا يا موبذان؟ -وكان أعلمهم عند نفسه بذلك- فقال: حادث يكون من عند العرب، وبُعِثَ في تأويلها؛ فقيل: إذا كثرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست الشام لسطيح شامًا، يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت»(١٠).

وقد عبر عن ذلك الإمام البوصيري في بردته قائلًا:

أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ
يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ
يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفُرْسُ أَنَّهُمُ
قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنقَمِ
وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ
كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرى غَيْرَ مُلْتَئِمِ
والنار خامدةُ الأنفاس من أسفٍ
عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ
وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا
وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِيْنَ ظَمِي(١١)

ومنها: ارتفاع استراق السمع، وحجب الشياطين، وهذا ما نوّه إليه ابن هشام حيث يقول: «قذف الجن بالشهب دلالة على مبعثه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وحضر مبعثه؛ حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها؛ فرُموا بالنجوم؛ فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد..»(١٢).

ومنها: ما أخرجه الحافظ ابن كثير «عن أسامة بن زيد قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل: قال لي حبر من أحبار الشام: قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع؛ فصدقه، واتبعه»(١٣).

كما أن من يطالع ما قصته علينا السيدة حليمة السعدية -رضي الله عنها- وما كان من أمرها وحالها قبل أخذه وبعده ليدرك مدى العناية الإلهية والنفحات الربانية، فقد قدِمت مكة مع غيرها من نسوة بني سعد بن بكر يلتمسن جميعًا الرضعاء، وقدمت على أتان ضعيفة، وما إن أخذته وعادت في طريقها حتى بدت بشائر الخير تظهر، وعلامات البركة تبرز، فزاد رزقها وكثر خيرها وشاع خبرها

(١٠) تاريخ الطبري، ٢/ ١٦٦، دار التراث- بيروت، ط: ٢، ١٣٨٧هـ.
(١١) بردة المديح، البوصيري، صـ١٢، دار التراث.
(١٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٨٩ بتصرف يسير.
(١٣) ينظر: البداية والنهاية: ٣/ ٣٩٤ وما بعدها بتصرف، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: صـ ١٥٤.

حتى قيل لها: والله لقد أخذت نسمة مباركة.

إن من يتتبع أمر السيدة حليمة ويقف أمامه لا بد أن يستولي عليه العجب من كثرة العظات وتنوع العبر، إنه حدث ينبئ بأمر مولود قد تهيأ له جميل الأسباب، وأحاطته كامل الرعاية الإلهية، وبالغ العناية الربانية، مولود قد سخرت له الأمور العظام، والخطوب الجسام، التي تصحبه في حله وترحاله، فتذلل له الأسباب، وتخضع لوجوده الموجودات، وكأنها مأمورة بحسن استقباله، بإخراج أجمل ما فيها، وأثمن ما لديها، وأنفس مطاويها؛ مما ينبئ عن عظيم شأنه، ورفيع مقامه؛ حتى كأنه ينبوع يفيض بالبركة، ويضفي من أنواره بالخير، ويصيب به كل مَنْ يصحبه من أشخاص وكائنات، ويتسم به كل مكان حلَّ فيه، هو ومَنْ يقوم بأمر الله تعالى على خدمته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وذكر الإمام السهيلي: «أن إبليس -لعنه الله- رن أربع رنات: رنة حين لُعن، ورنة حين أُهبط، ورنة حين وُلد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ورنة حين أُنزلت فاتحة الكتاب، والرنين والنخار من عمل الشيطان». وروي عن عثمان بن أبي العاص عن أمه أم عثمان الثقفية واسمها فاطمة بنت عبد الله قالت: «حضرت ولادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فرأيت البيت حين وضع قد امتلأ نورًا، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علي».

ووُلد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم معذورًا مسرورًا، -أي: مختونًا مقطوع السرة...- وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقل ولا وحم ولا غير ذلك»[١٤].

فالمتأمل فيما سبق: يُدرك يقينًا أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد اختص بخصائص تنطق بكونه مغايرًا لكل مولود، وأنه مبارك أينما حلَّ حتى وهو في رحم أمه، فلم يعترها ما يعتري النساء من آلام وأسقام، قد بلغت في شدتها الغاية، على نحو ما أخبر عنها الحق سبحانه في محكم آياته: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾

(لقمان: ١٤)

وقد استمرت البركات متعلقة به صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ملاصقة له، لا تكاد تفارقه، لا في بدء تخليقه في رحم أمه، ولا في أثناء ولادته، ولا فيما بعد ذلك، حتى جاءه الأجل وهو مستبشر برضا مولاه جل في علاه.

(١٤) الروض الأنف: ٢ / ٩٣ وما بعدها بتصرف.

كما تنبئ تلك النصوص أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد أحاطته العناية الربانية، ومُدت إليه أيادي الرحمة الإلهية؛ فجاء حدث مولده بإشارات مادية تدل على ذلك أتم دلالة، لا سيما كونه ولد معذورًا مسرورًا.

كما قد أحيط مولده الشريف ببشارات معنوية، تشيد بعلوِّ شأنه، وتنوِّه بجليل مقامه.

فمن الموافقات الجميلة أن يلهم (عبد المطلب) تسمية حفيده (محمدًا)! إنها تسمية أعانه عليها ملك كريم! ولم يكن العرب يألفون هذه الأعلام، لذلك سألوه: لم رغب عن أسماء آبائه؟ فأجاب: أردت أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده الخلق في الأرض، فكأنّ هذه الإرادة كانت استشفافًا للغيب، فإن أحدًا من خلق الله لا يستحق إزجاء عواطف الشكر والثناء على ما أدى وأسدى، كما يستحق ذلك النبي العربي المحمّد ﷺ(١٥).

إن سر تسميته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بمحمد كامن في كونها تسمية تكشف عن صفاته، وتنوه بنعوته، وتعرف بسماته، وتبرز محامده، وتكشف بدقة متناهية عن مسماها؛ إذ إن مادة (ح م د) تدور في فلك مدلولات: توفر المحامد، وفعل الأمور المتفق على حسنها، والرضا.. وغير ذلك من الصفات العالية، والنعوت السامية.

والتي من شأنها تأهيله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم للاتصال بالملكوت الأعلى؛ إذ إن تلك الخصال يتأتى بها الاختيار ويناط بها الاصطفاء، ويكون بها التكليف، وتتحقق من خلالها الرسالة.

ومن ثَمَّ قال العلامة أبو السعود: «مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة، هو التقدم في الاتصاف بالنعوت الجميلة، والصفات الجليلة، والسبق في إحراز الفضائل العلية، وحيازة الملكات السنية: جبلة، واكتسابًا، ولا ريب لأحد منهم في أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذلك الشأن، في غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات النائية»(١٦).

فهو ﷺ معروف بجميل الخلال، وكريم الطباع، وحسن الصفات، ومن ثم كان متسمًا بالمحامد كلها بإذن ربه سبحانه، ولذا يحمده أهل الأرض والسماء، يدل على ذلك ويؤكده ما جاء في قول أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»(١٧)، وهذا

---

(١٥) فقه السيرة، محمد الغزالي، صـ٦٢، دار القلم - دمشق، ط:١، ١٤٢٧ هـ.

(١٦) تفسير أبي السعود، ٤/ ١١٧، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

(١٧) مسند أحمد، ٤٢/ ١٨٣، رقم: (٢٥٣٠٢).

يقودنا لعموم وإطلاق يسع كل الأذهان، فما من خُلق حسن شمله القرآن إلا وقد طبَّقه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، فهو ترجمته الحية، ونموذج تطبيقه الفعال.

فقد كان قرآنًا يمشي على الأرض، تمثل القرآن قولًا وفعلًا، دعوة وسلوكًا، أمرًا ونهيًا، إقدامًا وإحجامًا، قبولًا ورفضًا.

ومن بديع أثر تلك التسمية: أنها كانت بمثابة الدرع الواقي للنبي -صلى الله تعالى عليه وآله وسلم-، والسلاح الذي يرد به على أعدائه، والعلاج الناجع في مواساته؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَلاَ تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ»(١٨).

إن الحديث عن مولده ﷺ يكشف حقًّا عن مظاهر العناية الإلهية ونوافذ البركات الربانية التي خص بها هذا الحدث الفريد الذي غيّر خارطة العالم، وأتى بنظام جديد يكشف عن قدره ومقداره من ناحية، ومن ناحية أخرى يبرز آثار هذا المولد والتي تمثلت في دعوة جاءت بالخير الجامع وقضت على الشر بألوانه، ولهذا كان ميلاده حقًّا إيذانًا بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمه ومعالجة دوافنه والتحذير من عواقبه.

لقد كان مولده ﷺ دليلًا ساطعًا على العناية الإلهية، ولعل ما حدث من أحداث وصاحبه من إرهاصات وإشارات ليؤكد أن مولده كان ميلاد خير، أعاد للإنسانية صوابها وللبشرية قوامها؛ فحرر العالم من أدران المادية وبراثن الجاهلية، وبدت معالم انتهاء الظلم قريبة، فكان ما صاحبه من أحداث، دلت على تفرده وتميزه، فلم تر البشرية له مثيلًا، ولم يُعرف له نظير، جمعت فيه المحامد بأسرها وتمثلت الأخلاق بتمامها، فكان كما قال ربه تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(القلم: ٤)

وكان كما أخبر هو عن نفسه ﷺ؛ حيث قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بُهْمًا لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجًا، ثم أخذاني؛ فشقا بطني، واستخرجا قلبي، فشقاه؛

(١٨) صحيح البخاري: كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ٤/ ١٨٥ رقم (٣٥٣٣).

فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج؛ حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته؛ فوزنني به فوزنتهم، ثم قال: زنه بمئة من أمته؛ فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته؛ فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فو الله لو وزنته بأمته لوزنها (١٩).

(١٩) سيرة ابن هشام: ١ / ١٦٦ بتصرف يسير، تاريخ الطبري: ٢ / ١٦٥ بتصرف يسير، الروض الأنف: ٢ / ١٠٨ وما بعدها بتصرف.

وأخرج الإمام أحمد عَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ» (٢٠).

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

(٢٠) مسند الإمام أحمد: ٢٨/ ٣٧٩ رقم (١٧١٥٠).

